«براغماتي»، يمارس السياسة باعتبارها التكثيف المباشر للمصلحة، والقوة؛ والآخر يرفع، من الناحية الشكلية، لواء ايديولوجيا «تقدمية»، ولكنها تتكشف، عند التنظير الايديولوجي، عن كونها لا تتعدى اطاراً من النصوص والصياغات الجاهزة، تمت استعارتها، بصورة قسرية، لتؤدي مهامها في اعادة تكييف واقع اجتماعي، واطار تاريخي وسياسي، مختلف تماماً.

ولا شك في ان في الامكان، الآن، معرفة اين ينحصر ميدان البحث. غير انه من الضروي القول انه اذا كان ثمة ابتعاد من مناقشة ما هو سياسي، بالمعنى المباشر والعملي لهذه القضية التي لا نزال نعيش بعض فصولها، فان ذلك ليس الا ابتعاداً مؤقتاً يستهدف، بشكل رئيس، رد عناصر هذه القضية الى حركيتها الداخلية الاصلية، من اجل تفسير ما هو غامض في ما يبرز على السطح من احداث ومواقف وتناقضات. أي في ما يشكل السياسة بمعناها المباشر والآني.

وثمة ضرورة لتوضيح مسألتين أخريين بهذا الصدد: الاولى هي ان البحث سوف يقتصر على التركيز على مناقشة اتجاه واحد حددناه سابقاً في اطار الفكر السياسي الفلسطيني، هو الاتجاه اليساري الماركسي. واذا كان من تبرير نطرحه لهذا التحديد المسبق، فلأننا نعتقد ـ وهذا ما سنبرهن عليه ـ بأن اليسار الماركسي الفلسطيني، وان كان صوته الاكثر ارتفاعاً وصخباً في الدعوة الى الوحدة الوطنية، الا انه شكل، دائماً، نقطة الضعف في مسار الوحدة الوطنية. وان النزوع نحو الانقسام كان احدى ابرز السمات التي اتسمت بها ممارسته السياسية. اما الثانية، فيمكن تبرير ادماجها هنا، باعتبارها احدى النتائج التي يقتضي هذا البحث معالجتها. فاذا كنّا حددنا، مسبقاً، اطاراً هو ميدان الافكار والايديولوجيا، فان هذه المناقشة ستظل ناقصة دون التعرف على بعض اوجه واشكال التنظير الايديولوجي الذي حاول التصدي لمعالجة هذه المشكلة، او تقديم تفسير لها، وذلك لتحقيق غرضين هامين ضمن اهداف البحث: الأول من اجل معرفة الدور الذي يلعبه التنظير الماركسي الفلسطيني في هذا السياق، والتفسير الذي يتبناه؛ والثاني للتوصل الى تحديد ادق الى مغزى الانقسام الفلسطيني، في حالته الخاصة، وهو الامر الذي يقضي ان نبدأ بحثنا به.

بنية ثابتة، أو نظرية اللاثورات

لقد لاحظ جاك بيرك ان الاندفاعة الوطنية الاولى في اي قطر عربي تميل الى ايجاد تجمع عريض غير متجانس («الكتلة الوطنية» في سوريا، «الوفد» في مصر، «الاستقلال» في المغرب، «الدستوري» في تونس)، حيث تتكون من عناصر متباينة، متناقضة، هدفها الوحيد الجامع تحقيق الاستقلال السياسي. ولكن سواء جاء الاستقلال من طريق المفاوضات، أو الثورة، فان هذه التجمعات سرعان ما تتصدع، وتحل الانشقاقات الفكرية والشخصية محل الشعور الوطني العفوي الشامل[٢]. أي باختصار: لماذا كانت بنية الحركة الوطنية العربية طوال تاريخها بنية انقسامات وصراعات ؟ هذه هي صيغة السؤال الذي يمكن ان تفضي اليه ملاحظة بيرك. ولعل في صيغة السؤال تكمن اهمية العثور على جواب عن اسباب الانقسام الفلسطيني. فالحالة الفلسطينية ليست ـ كما يتضح ـ الحالة الوحيدة التي عرفت الانقسام، وانما يكاد يكون الانقسام سمة بارزة في تاريخ الحركة الوطنية العربية. اما الاهمية التي ينطوي عليها هذا التماثل بين الحركة الوطنية الفلسطينية وبين العربية، فانها، في رأينا، قد تفيد في عملية الكشف عن الحدود التي تلتقي عندها ظاهرة الانقسام الفلسطينية بالظاهرة التي عرفتها التجربة العربية ككل، وكذلك الحال بالنسبة الى جوانب الاختلاف التي يتعين عندها الاخذ في الاعتبار الابعاد السياسية التاريخية في تحديد جوانب الاختلاف.

والواقع ان رد الاشكالية الفلسطينية الى هذا الاطار المرجعي الأوسع من شأنه ـ على الرغم من